# دون كيخوته لسرفنتس

بقلم
الدكتور عبد العزيز الأهوانى
أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

## حياة المؤلف

ولد الكاتب الأسبانى ميجيل دى سرفنتس سافيدرا مؤلف الرواية المشهورة « السيد العبقرى دون كيخوته دى لامنشا » فى قلعة هنارس — على أرجح الأقوال — من ولاية قشتاله بأسبانيا فى عام ١٥٤٧ . وهو الابن الرابع من سبعة أبناء رزقهم أبوه رودريجو دى سرفنتس

وكان أبوه يزاول مهنة الطب ، وهى مهنة كانت وقتذاك لا تدر على أصحابها إلا القليل . وكان مضطراً فى سبيل العيش لأن ينتقل من بلد إلى آخر . لذلك لم يتح لابنه ميجيل أن يتلقى دراسة جامعية منظمة ، على حبه للمعرفة وشغفه بالقراءة وميله إلى الشعر والأدب . وإنما هى دراسات متقطعة فى معاهد مختلفة بين إشبيلية ومدريد وسلمنقه . ولقد صار فيما بعد منافسو سرفنتس وحساده يلمزونه بنقص فى التعليم وأنه لا يحمل شهادة عالية . ولكنه عوض هذا بمطالعاته الخاصة وصبره على التحصيل الشخصى حتى استوعب ثقافة عصره استيعاباً حسناً .

وفى سنة ١٥٦٨ التحق بخدمة الكاردينال أكوافيفا الرسول البابوى فى البلاط الأسبانى ، وذهب معه إلى إيطاليا ، حيث عاش فترة فى روما وفى غيرها من المدن الإيطالية . وكان لهذه الرحلة أثرها فى توسيع ثقافته وزيادة تجاربه ، لما كانت تتمتع به إيطاليا من حرية اجتماعية وازدهار ثقافى بدأ منذ عصر النهضة الأوربية الأولى وتمثل فى دانتى وبوكاشيو وبترارك .

ولكن سرفنتس ضاق بحياة الخدمة ووجد أنها لا ترضى طموحه ، فتطلع إلى حياة الجندية والتحق بالجيش وشارك فى المعركة البحرية لبانتو التى دارت فى السابع من أكتوبر سنة ١٥٧١ بين الأسطول العثمانى وبين أسطول مشترك من أسبانيا ومن إمارة البندقية ، نتيجة لحلف عقده بينهما البابا بيو الخامس لمقاومة سلطان العثمانيين . وجرح سرفنتس فى هذه المعركة ، التى هزم فيها العثمانيون ، وتعطلت ذراعه اليسرى . وكان سرفنتس يفتخر بمشاهدة هذه المعركة ومساهمته فيها . وقد وصفها بقوله « إنها أزالت عن عيون العالم الغشاوة التى جعلتهم يعتقدون أن الأتراك لا يمكن أن يهزموا فى البحر » . وحمل سرفنتس بعد المعركة إلى إيطاليا حيث عولج من جراحه . ولكن يده اليسرى لم تشف ، وظلت عاجزة عن العمل طول حياته ، وإن لم تقطع . ومع ذلك فقد عاد إلى الأسطول فترة أخرى .

ثم قرر العودة إلى أسبانيا ، وحمل فى جيبه كثيراً من خطابات التوصية ليمهد بها لنفسه فى وطنه . ولكن السفينة التى ركبها وقعت فى أسر القراصنة الأتراك ، أو لمن يعملون لحسابهم ، وذلك فى سنة ١٥٧٥ . فقادوا سرفنتس إلى مدينة الجزائر ، واعتقلوه هنالك انتظاراً للفدية التى بالغوا فى تقديرها ، اعتقاداً منهم أنه ذو مكانة بسبب ما يحمله من خطابات التوصية . فكان مصدر بلائه ما حسبه مصدر سعادته ! وقد قضى عليه أن يبقى فى قبضة آسريه نحواً من خمس سنوات ، حتى أتيح لجمعية دينية مسيحية أن تدفع فديته بعد إذ أوشك آسروه أن يحملوه إلى القسطنطينية . ولقى سرفنتس فى الأسر كثيراً من الشدائد ولكنه لم يضعف أو يستذل ، بل حاول الفرار عدة مرات ودبر خططاً لغيره من الأسرى كى يفروا باءت كلها بالفشل ، وكادت تعرضه للقتل المحقق ، لولا إكبار سجانيه لصراحته وشجاعته .

وعاد إلى أسبانيا فى سنة ١٥٨٠ وكله أمل فى أن يجد فى وطنه منصباً يتفق وبلاءه فى معركة لبانتو وبلواه فى أسر الجزائر . ولكنه لم يظفر بشىء ذى بال . وشرع يعتمد على قلمه فألف عدداً من المسرحيات والقصص ، ولكن كسبه من قلمه كان ضئيلا بحيث رضى أخيراً أن يشتغل محصلا يتولى باسم الدولة جمع ما يحتاج إليه الأسطول الإسبانى — الأرمادا — من مواد التموين ، وهو الأسطول الذى هزم فيما بعد أمام الأسطول الإنجليزى الهزيمة المشهورة . وذهب إلى إشبيلية وكثير من مدن الأندلس — جنوب أسبانيا — للقيام بهذه المهمة . ومع ذلك فان هذه الوظيفة الخاملة زجت به إلى السجن فى إشبيلية مرتين . فى سنة ١٥٩٧ و ١٦٠٢ حيث أتهم بتبديد أموال الدولة نتيجة لإهماله وسوء تصرفه . ويقال إن موضوع قصته الخالدة دون كيخوته ، قد خطر له وهو فى سجن إشبيلية .

ثم أعفى سرفنتس من وظيفته ، وذهب إلى بلد الوليد — عاصمة أسبانيا وقتذاك — ليدافع عن تصرفاته ويبرئ نفسه ، فلاحقه السجن مرة ثالثة فى سنة ١٦٠٥ لقضية قتل فيها أحد النبلاء ، صادف أن كان مقتله أمام منزل يسكنه سرفنتس . ولم يلبث فى السجن طويلا فى هذه أو فى المرتين السابقتين .

وأثناء رحلته إلى بلد الوليد وقع عقداً بنشر قصته دون كيخوته . وصدر القسم الأول منها مطبوعاً فى مدريد سنة ١٦٠٥ .

ولم تسند إلى سرفنتس وظائف حكومية جديدة . وإنما عاش مما يقدمه إليه ناشرو كتبه ، وما يدفعه إليه أصحاب الفرق التمثيلية من أجر لمسرحياته . ولم تسجل فى حياته أحداث كبرى . وقد تزوج سرفنتس من كتالينا دى بلاثيوس سنة ١٥٨٤ ، وهى على شىء من ثراء وكانت تصغره بثمانية عشر عاماً .

وتوفى فى مدريد وبها دفن فى الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٦١٦ ، وهى السنة التى توفى فيها شكسبير .

## أعماله الأدبية

عاش سرفنتس فى أزهى عصور الأدب الأسبانى حيث تعددت فنون ذلك الأدب وتنوعت أساليبه ، وآتى عصر النهضة الأوربية السابق عليه ثماره . فعرف المثقفون الأسبان أمهات الآثار اليونانية الرومانية القديمة وعرفوا ترجمات كثيرة عن اللغة العربية ، واتصلوا اتصالا وثيقاً بالإنتاج الأدبى لإيطاليا ، ولا غرو ، فقد كانت أجزاء من إيطاليا تخضع للتاج الأسبانى .

ازدهر المسرح ازدهاراً ، وشغف الناس به ، وأنشئت الفرق المتعددة . وكثر الشعراء وانفتحت للشعر على اختلاف أنواعه آفاق جديدة . واتخذت القصة لها مكاناً فى إنتاج العصر . وكانت قصص الفروسية ، والقصص الرعوى ، وقصص البكارسك أى قصص

المحتالين ، مما غمرت به المطابع الأسواق . واحتفل الناس بأنواع من المنظومات الشعبية أخرجتها المطابع فى مجموعات تحمل اسم الرومانسيرو ، وهو نظم بسيط يسرد أحداثاً تستوحى الأساطير أو الوقائع التاريخية ، ويجتهد المثقفون فى محاكاته والسير على أساليبه . هذا فضلا عن النشاط الثقافى فى مجالات أخرى كاللغة والتاريخ والعلوم .

وقد شارك سرفنتس فى كثير من هذه الفنون ، وكتب فى أكثر من نوع أدبى ، وعالج النظم والنثر . وقد بدأ حياته الأدبية بنظم الشعر مذ كان طالباً ، وحفظت له بعض القصائد فى مجموعات الشعر الأسبانى كما ضمن عدداً منها كتبه النثرية وتمثيلياته . وله منظومة طويلة فى ديوان عنوانه « رحلة فى البرناس » ينتقد فيها معاصريه من الشعراء ويحاكى منظومات إيطالية مشابهة ولكن شعره كان متوسط الجودة ، وقد أدرك بنفسه ذلك ، وشكا من أن السماء تضن عليه بموهبة الشعر .

وكذلك ألف عدداً من المسرحيات ، ضاع بعضها وبقى لنا منها عشر ، ولكنه فى هذا الميدان أيضاً لم يبلغ مبلغ عملاق المسرح الأسبانى لوبى دى فيجا ، الذى وصفه سرفنتس بأنه إحدى خوارق الطبيعة . وكان معاصراً له .

أما موهبة سرفنتس فقد واتته فى النثر ، وكانت روايته النثرية « دون كيخوته » أثراً رائعاً كتب لصاحبه الخلود ، وجعله فى الصف الأول من عظماء الكتاب ، لا فى أسبانيا وحدها ، بل فى العالم كله . وقبل أن نتحدث عن هذه الرواية نشير بشىء من تفصيل إلى أهم أعماله الأخرى التى وصلت إلينا .

أولى الروايات التى نشرت لسرفنتس ، وقد طبعت فى سنة ١٥٨٥ هى لاجالاتيا . وهى قصة من الصنف الرعوى تدور حول حب يضمره لجالاتيا هذه اثنان من الرعاة ينظمان فيها الشعر وينشدان الأناشيد ، ويستمعان من رفاقهما قصصاً عن الحب بين الرعاة والراعيات ، وغدر أولئك وموت هؤلاء ، ويتناقشون جميعاً فى قضايا الحب وما فيه من خير وشر ، ويزوران أحد الرهبان المنقطعين حيث يقص عليهم حبه فى مدينة نابولى ويأسه والتجاءه إلى الرهبنة . إلى أشباه ذلك من أقاصيص تمتاز بالمبالغة ، ويصحبها وصف طويل للطبيعة وغناء بالمثالية ونظم للشعر . وميزة الرواية أن فيها إشارات إلى معاصرى سرفنتس ، وفيها أضواء على حياة سرفنتس الشخصية وبعض تجاربه فى الحب .

وإذا كانت هذه أول قصصه فآخرها — وقد صدرت فى مدريد سنة ١٦١٧ بعيد وفاته — تحمل عنوان « أعمال برسيلوس وسيجسمندا » وهما فتى وفتاة متحابان ، وهما من أبناء الملوك ، يتظاهران بأنهما أخ وأخته يجوبان أوربا من شمالها إلى جنوبها ، ثم يصلان إلى إيطاليا حيث يتم زواجهما . وهى قصة من النوع الذى ينسب إلى بيزنطه ، والذى يشتمل على أوصاف البلاد وسكانها ، ويتضمن قصصاً استطرادية كثيرة . وقد تضمنت القصة أيضاً بعض ذكريات سرفنتس وظهر فيها أثر قراءاته المتعددة .

وله فى مجال القصة مجموعة من القصص القصيرة جعل عنوانها « قصص للعبرة » تتراوح بين الواقعية والخيالية ، منها ما هو اقتباس ومنها ما هو اختراع ، ويتجلى فى بعضها تأثير الأدب الإيطالى . وقد اشتهرت من بينها قصة « الغجرية » التى تحمل نفحة من عبقرية سرفنتس . وقد صدرت هذه المجموعة فى مايو سنة ١٦١٣ فأكدت موهبة سرفنتس فى فن القصة ، حتى جاز له أن يقول « إننى أول من كتب القصة فى اللغة القشتالية » .

أما عن نشاطه فى التأليف المسرحى ، وكان سرفنتس شديد الشغف بالمسرح ، فقد وصل إلينا من آثاره عشر مسرحيات — كما ذكرنا — مثل فيها كل الاتجاهات التى عرفها المسرح الأسبانى فى عصره : فمن مسرحية

تاريخية نموذجها « نومانسيا » وأخرى تتصل بالفروسية نموذجها « منزل الغيرة » وثالثة دينية نموذجها « القواد السعيد » ورابعة تتصل بحياة المسيحيين والمسلمين نماذجها « السلطانة العظيمة » ومسرحيتان عن الجزائر ، يتعرض فى إحداهما لحياة الأسرى ومحاولاتهم الفرار وغرامياتهم كما تعرض لحياة المسلمين . وهى أشبه بمناظر متلاحقة لا يرتبط بعضها ببعض ، ولكنها تعبر عن كثير من ذكريات سرفنتس حين كان فى أسر الجزائر . وله أخيراً مسرحية تعرض لحياة المحتالين « البكريساك » .

وبالرغم من هذا النشاط المسرحى الكبير ، وتنوع مسرحياته من ناحية المواضيع والأساليب ، إلا أن مكانة سرفنتس فى عالم المسرح الأسبانى دون الأئمة بمراحل .

## رواية دون كيخوته

ولكن هذه الأعمال كلها تتضاءل أمام أثره الخالد ، وهو رواية « السيد العبقرى دون كيخوته دى لامنشا » التى أخرج القسم الأول منها — كما ذكرنا — فى سنة ١٦٠٥ . وكان قد وعد فى آخر ذلك الجزء بإخراج قسم ثان يتابع فيـــه مغامرات بطله ويصف رحلته إلى مدينة سرقسطه . ولكنه تأخر فى انجاز ما وعد به . وحدث أن أخرج كاتب أسبانى معاصر له ، لم يصرح باسمه ، وإنما أطلق على نفسه اسما مستعاراً هو : ألونسو فرناندث دى افيانيدا كتاباً فى سنة ١٦١٤ يحمل عنواناً « القسم الثانى من السيد العبقرى دون كيخوته دى لامنشا » يكمل فيه سيرة الفارس على نمط سرفنتس . وقد تعرض فى مقدمته لنقد سرفنتس وأفحش فى سبه . وكان وقع ذلك شديداً على سرفنتس فأنجز وعده بعد عشر سنوات ، واخرج القسم التالى من قصته فى سنة ١٦١٥ . وختم قسمه الثانى بوفاة دون كيخوته ليقطع السبيل على المزيفين كما صرح بذلك .

وسنورد خلاصة للرواية ، ثم نحكم بعد ذلك على قيمتها ، ونتلو ذلك بنموذج منها . ولكن يجب أن نذكر قبل هذا أن سرفنتس ادعى فى بعض فصول روايته أنها من تأليف مؤرخ عربى جعل اسمه « سيدى هميتى بننجيلى » — عربناه فى الرسم إلى سيدى حماده بن الجيلى فى ترجمتنا للرواية — وأنه عثر عليها مكتوبة بالعربية ، فأسند إلى أحد الموريسكيين — وهم من أبناء المسلمين الذين بقوا فى أسبانيا بعد زوال الحكم العربى وتنصروا — وكان يعرف العربية والأسبانية بترجمة الرواية . ومضى سرفنتس يذكر اسم المؤلف العربى بين حين وآخر أثناء سرد روايته .

وقد اتبع سرفنتس فى هذا سنة بعض مؤلفى كتب الفروسية السابقين عليه ، ممن كانوا يضيفون إلى مؤرخين قدماء يونانيين أو رومانيين أو عرب أمر تأليف هذه الكتب ليجعلوا لها ما يشبه المستند التاريخى ، وليوهموا القراء بأنها تشتمل على حقائق لا أباطيل ، بالرغم من أن القراء لا يصدقون هذا النسب المدعى .

وفى الحق أن سرفنتس اختلف عن أولئك المؤلفين بأن أحسن استغلال الموضوع ، وجعل من سيدى حماده مؤلفه العربى المزعوم شخصية يستحضرها كثيراً — وخاصة فى القسم الثانى — ليعبر عما فى نفسه هو من اعجابه بعمله أو استدراكه لبعض أخطائه . بل إن سرفنتس جعل أبطال الرواية يناقشون سيدى حماده فى بعض ما كتب ، مما أكسب الموضوع طرافة وابتكاراً .

وليس من شك فى أن شهرة الأدب العربى بالسير وما ترجم عن اللغة العربية العربية إلى الإسبانية قبل عصر سرفنتس من قصص الحكمة ومن حكايات دينية وغير دينية ، كما أن صلة سرفنتس بالعالم الإسلامى المعاصر له ومعيشته سنوات فى الجزائر ، فضلا عن سنة المؤلفين السابقين ، كان مما رشح لديه سيدى حماده لينسب إليه تأليف سيرة دون كيخوته .

## موضوع الرواية وخلاصتها

دون كيخوته – وهو رجل نحيف طويل قد ناهز الخمسين – برجوازى متوسط الحال ، يعيش فى قرية من قرى إقليم لامنشا بأسبانيا . لم يتزوج . ولا يعيش معه فى بيته القروى إلا ابنة أخت له ، وخادم تتكفل بشئون البيت ، ولديه من الفراغ ما يسمح له بالقراءة والمطالعة . ويقوده مزاجه إلى كتب الفروسية التى تسرد وقائع الأبطال والمغامرين من الفرسان الجوالين ، فيجتمع له منها قدر ضخم يعكف الليل والنهار على قراءته ، ويشغف بها شغفاً يملك عليه حسه ، حتى يكاد يفقد عقله ، وينقطع ما بينه وبين الحياة الواقعية . ثم يبلغ به الهوس حداً يجعله يفكر فى أن يعيد دور هؤلاء الفرسان ، وذلك بمحاكاتهم والسير على نهجهم حين يضربون فى الأرض ، ويخرجون لكى ينشروا العدل وينصروا الضعفاء ويدافعوا عن الأرامل واليتامى والمساكين .

وقر عزمه على الخروج ،وأعد له عدته ، فاستخرج من ركن خفى بالمنزل سلاحاً قديماً متآكلا خلفه له آباؤه منذ زمن قديم ، فأصلح من أمره ما استطاع ، وأضفى على نفسه درعاً ، ولبس خوذة ، وحمل رمحاً وسيفاً ، ووضع فى ذراعه درقة ، وركب حصاناً أعجف هزيلا ، أطلق عليه اسم روسينانتى ، كما أطلق على نفسه هو اسم دون كيخوته دى لامنشا بدلا من اسمه الأصلى الونسو كيخانا الطيب ، وأخذ يدير فى رأسه أسماء من عرف من قرويات ، فاستقر على اسم إحداهن ، فصارت دولثينيا دالتوبوسو . وتخيل أنه لها محب ولهان ، شأن الفرسان السابقين مع حبيباتهم . وخرج ، دون أن يشعر به أحد ، قبيل الفجر فى يوم من أيام الصيف ، وهو على هذه الهيئة الغريبة ، التى انقرض أصحابها منذ أجيال ، يلتمس المغامرات ، ويمنى نفسه الأمانى ، وتهجس فى صدره وساوس عظيمة .

ثم تذكر ، وهو سائر فى طريقه فرحاً مزهواً ، أن خروجه غير شرعى ، وأنه لكى يصبح فارسا جوالا ذا حق فى استخدام السلاح ، ينبغى أن ينصب فارساً على يد شيخ من الفرسان معترف به ، حسب ما هو مدون فى كتب الفروسية التى قرأها . ويضطرب لذلك الأمر اضطراباً شديداً . ولكنه يرى عن بعد خانا صغيراً مما ينزل فيه المسافرون ، وسرعان ما تخيله قلعة ذات أسوار ، وتخيل صاحب الخان فارساً عظيما ، فركع أمامه ودعاه إلى تنصيبه فارساً ، ومضى صاحب الخان فى المهزلة ، فحقق له ما أراد .

ويعود دون كيخوته فرحاً إلى قريته ليحمل معه بعض ما يلزم الفرسان من متاع ، فيلقى فى طريقه فلاحاً يضرب غلاماً له . ويمارس للمرة الأولى حقه فى الفروسية ، ويهدد الفلاح برمحه ، ويخلص الصبى المسكين من يده ، ويمضى معتقداً أنه أسدى يداً عظيمة على حين يعود الفلاح إلى غلامه فيزيده تنكيلا وعذاباً .

ويعود الفارس الجوال إلى منزله على حمار فلاح من أبناء قريته ، صادف الفارس طريحاً على الأرض ، بعد معركة ضرب فيها ضرباً مبرحاً على يد تجار استفزهم بجنونه ، ويدخل بيته ، وهو يهذى هذياناً طويلا ، بكت له صاحبتاه .

* * *

ويقر عزمه على الخروج ثانية . ولا يستطيع أن يثنيه عن حمقه أحد ، لا صاحبتاه ، ولا صديقاه المخلصان له ، قسيس القرية وحلاقها ، اللذان أحرقا مكتبته أثناء غيابه ، مقدرين أنها مصدر جنونه . بل إن الفارس يستطيع خلال إقامته القصيرة أن يستغوى فلاحاً ساذجاً ، هو سانشو بانثا ، فيفاوضه على أن يكون تابعاً له وحاملا لشعاره ، شأن اتباع الفرسان فى قصص الفروسية ، ويمنيه الأمانى ، ويعده أن يجعله حاكماً على إحدى الجزر ، حين يفتح الله عليه ، ويهبه النصر والمجد

المنتظر . ويصدقه سانشو ، ويضع خرجه على حماره ويركبه ، ويسير خلف سيده الراكب على حصانه ، ويصبح شاهداً وشريكاً له فى مغامراته كلها ، وهو يرجو وينتظر أن يتحقق له ما وعده به سيده من إمارة وحكم .

ويخرج الفارس وتابعه خلسة ، بعد أسبوعين من عودته ، إلى الدنيا العريضة . وهذا هو خروجه الثانى .

وأثناء هذا الخروج يقوم الفارس بمغامرات عديدة ما هى فى حقيقتها بمغامرات ، ولكن خيال الفارس يأبى إلا أن يجعل من الشىء العادي المألوف أمراً خطيراً يستحق المغامرة . وأول الحوادث هى معركته مع طواحين الهواء ، إذ توهم أنها شياطين ذات أذرعة هائلة ، واعتقد أنها مصدر الشر فى الدنيا ، فهاجمها غير مصغ إلى صراخ تابعه وتحذيره ، ورشق فيها رمحه ، فرفعته أذرعتها فى الفضاء ودارت به ورمته أرضاً فرضت عظامه . ثم تصادفه فى يوم تال عربة تجرها الخيل ، فيها امرأة مسافرة ، حولها الخدم ، وأمامها راهبان على بغلين ، فيدخل فى وهم الفارس أنها سيدة قد اختطفت وقيدت قسراً ، وأن واجبه تخليصها من أسرها ، وأن الراهبين ساحران خبيثان ، فيهاجم الراهبين ، ويخوض معركة مع خادم للسيدة تنتهى بضربة تسقط الخادم عن دابته . ولا ينقذ الموقف إلا تعهد المهزوم أن يمضى فوراً إلى بلد التوبوسو ليقدم نفسه خاضعاً لدولثينيا سيدة الفارس يسألها العفو ويشهد ببطولة دون كيخوته حبيبها .

ولا يسلم سانشو خلال مغامرات دون كيخوته من أذى يصيبه ، فلقد ضرب ضرباً شديداً فى معركة دارت بين الفارس وبين فريق من تجار جليقية ، كان جانبها روسينانتى حين تحكك فى أفراس أولئك التجار . وكذلك حدث فى فندق نزل فيه الفارس أن أخذ بعض العابثين يتقاذفون سانشو فى ملاءة سميكة أمسكوا بأطرافها من كل جانب يرفعونها ويهبطون بها ، فيتعالى سانشو فى الهواء ويتكور ثم يسقط ليعود إلى التحليق مرة بعد مرة . ولم تفارق ذاكرة سانشو هذه الدعابة الموجعة القاسية ، التى كان سببها امتناع دون كيخوته عن دفع أجر لمبيتهما فى الفندق ، إذ توهم أنه بات ليلته فى قلعة من قلاع الفرسان ، ولا يجوز فى حكم الفروسية أن يدفع أجراً فى مثل هذه الحال .

وسانشو بانثا يحب السلم ويؤثر المسكنة على القتال ، ولكن المشكلة تجيء من أن دون كيخوته بوصفه فارساً لا يباح له إلا قتال الفرسان وحدهم ، فاذا جاء العدوان ، وإن يكن لسوء تصرفاته هو ، من مدنيين لا يحملون سلاح الفرسان ، فقد وجب أن يتكفل سانشو برد هذا العدوان . والنتيجة الحتمية لذلك أن يتحمل سانشو ما يتحمل من لكمات وصفعات وضرب بالعصى وتمرغ فى التراب ورجم بالحصا وتقاذف فى الملاءات !

ثم تجيء بعد ذلك معركة الأغنام المشهورة . فلا يكاد دون كيخوته يبصر غبار قطيع من الأغنام يملأ الجو حتى يتخيل أنه يشهد زحف جيش عظيم ، ويتصاعد غبار من الجهة المقابلة لقطيع آخر ، فيؤمن بأنها المعركة الهائلة بين جيشين لملكين ، أحدهما مسلم وثانيهما مسيحى ، ويأخذ فى هذيان طويل يشرح فيه لتابعه أمر الجيشين وسبب القتال بينهما ، ثم يندفع بحصانه يخوض المعركة التى أتاحها له القدر ليثبت فيها شجاعته ويخلد اسمه . وتنجلى المعركة عن قتل عدد من الأغنام برمح الفارس ، وعن سقوط الفارس تحت وابل من أحجار الرعاة ، يفقد فيها عدداً من أضراسه !

والفارس فى مثل هذه المعارك يدرك الحقيقة بعد هزيمته ، ولكنه لا يفسر الأمر على الوجه الصحيح فيرجعه إلى جنونه هو ، وإنما يفسره على أن خصومه من السحرة ، وقد أرادوا حرمانه من نصر مؤكد ومجد لا بد أن يظفر به ، قد مسخوا بسحرهم العمالقة الشياطين إلى طواحين هواء، والفرسان المحاربين إلى أغنام ! وهكذا

تتكرر المآسى وتأوّل الوقائع ، وبذلك لا يتعظ الفارس من هزائمه ولا يعتبر بما سبق أن حدث له ، ولا يستمع لتحذيرات تابعه ولا يصدقه . وتابعه لسذاجته فى حيرة بين تكذيب وتصديق .

وكما تجرى مغامرات الفارس فى وضح النهار ، كذلك تقع فى ظلام الليل . لقد أقبلت جنازة فى الطريق ذات ليلة ، تحف بها شموع يحملها رهبان فى ثياب الحداد ، فتوهم دون كيخوته أن الميت فارس جريح أو قتيل سرق جثمانه هؤلاء المشيعون ، فعول على استنقاذه ، ولم يستمع لحديث الرهبان ، ولولا فرارهم لساء المصير . وكذلك سمع فى الليل أصواتاً هائلة وصليل سلاسل حديدية تنبعث من نواعير ماء بعيدة فتوهمها الفارس مؤامرة لبعض الشياطين ، وأخذ يهيئ نفسه لمعركة قاسية ، والرعب قد أخذ من سانشو كل مأخذ ، حتى زالت المغامرة بزوال الليل وظهور النهار ، بين شماتة سانشو وسخريته التى كاد يدفع ثمنها غالياً ، لولا أن صبر سيده وكظم غيظه .

ثم تجيء مغامرة السجناء أو السفائنيين ، إن الفارس يبصر عدداً من جنود الدولة يقودون نفراً من الناس مشدودين فى سلسلة طويلة ، فيستوقفهم ويستجوبهم فيعلم أنهم مجرمون قد حكم عليهم بالعمل فى الأسطول الملكى ، وأنهم يسيرون فى حراسة إلى حيث الأسطول . فيناقش الفارس السجناء واحداً واحداً عن جريمته ، ويصدر أحكاماً تتصل بأنواع الجرائم وبواجبات الحكومة وبمشاكل المجتمع على قدر كبير من الوعى وحسن التقدير ، ثم يأمر باطلاقهم ويهاجم الحراس إذ يمتنعون ، ويحدث هرج ومرج يتخلص فيه السجناء من قيودهم ، وينطلقون لا يلوون على شيء . ولكن دون كيخوته يستوقفهم ، ويأمرهم بأن يذهبوا جميعاً صفاً واحداً إلى حيث سيدته ومالكة فؤاده دولثينيا دالتوبوسو ليقروا أمامها بفضل فارسها العظيم وما تم على يديه من خلاصهم . فيحاولون اقناعه دون جدوى باستحالة ما يريد ، فيمطرونه بوابل من قذائف الحجارة ويمعنون فراراً فى الأرض . ويمضى الفارس ومن خلفه تابعه ويدخلون جبال سيرا مورينا .

ويجد الفارس نفسه فى مكان خلوى هادئ بين أشجار الجبال ، فتراوده فكرة راودت من قبله الفرسان الجوالين . إنه ينبغى عليه أن يمارس شعائر التوبة ، فينفرد منقطعاً إلى التأمل والاستغفار والهتاف باسم حبيبته ، وأن يأخذ جسده بالصيام والتعذيب لتصفو روحه وترضى عنه حبيبته ، وعند شروعه فى التوبة يحمل تابعه رسالة مكتوبة إلى سيدة نساء العالم وأجملهن دوليثينيا دالتوبوسو ، يستعطفها ويشرح لها ما هو فيه من توبة وعذاب .

* * *

وكان قسيس القرية وحلاقها ، وهما صديقا دون كيخوته وجاراه ، قد خرجا يبحثان عنه ، آملين اقناعه بالعودة إلى بيته وترك ما هو فيه من باطل ، فيصادفان سانشو ويستخبرانه فيخبرهما بحال سيده وتوبته ومكانه . ويعملان على إخراجه مما هو فيه بحيلة تنطلى عليه . ويهديهما التفكير إلى اصطحاب فتاة ، لها قصة طويلة سردها المؤلف ، صادفاها فى تلك النواحى وتتقن الفتاة تمثيل الدور الذى أسند إليها . فهى وارثة عرش مملكة ميكوميكونا ، ولكن عدواً لها من العمالقة قد اغتصب حقها وطردها من مملكة أبيها . فجاءت إلى الفارس الشهير الذائع الصيت ، من مملكتها البعيدة فيما وراء البحار ، بناء على نصيحة أبيها الذى كان بصيراً بعلم النجوم ، لتضع مصيرها وحقها بين يدى دون كيخوته ، وتركع أمامه ، وتأبى أن تقوم إلا إذا أعطاها صفقة يمينه على أن يسير معها فوراً إلى مملكتها ، وأن يتعهد بأن لا يخوض معركة أياً كانت ، حتى ينجز هذه

المهمة أولا . ويصدقها دون كيخوته ويمضى معها ، ويتكامل الموكب ، ويأخذ الطريق إلى قرية دون كيخوته

ويبيت المسافرون فى فندق هنالك ، وهو الفندق الذى شهد تقاذف سانشو من قبل ، وتحدث فى الفندق أحداث كثيرة فى تلك الليلة ، منها واقعة دون كيخوته مع زقاق الخمر التى شهدها فى قبو الخان ليلا فحسبها عمالقة وانهال عليها تمزيقاً ، وهو يحسب الخمر المتدفق منها دماء . وتلقى الفتاة فى الخان زوجها الذى كان قد هجرها ، فتغير الخطة وتعفى الفتاة من تمثيل دورها . وتعد مفاجأة أخرى لدون كيخوته .

فيدور حول دون كيخوته وهو نائم رجال مقنعون يتخذون أزياء غريبة ، ويشرعون فى تقييده وتكتيفه ، ثم يحملونه وهم صموت لا ينطقون إلى قفص كبير قد أعد من قبل فوق عربة تجرها الثيران ، فيضعونه فيه ، ولا يبدى دون كيخوته مقاومة ، لأنه متأكد أن ما يحدث له إنما هو فعل سحرة لا سبيل إلى دفعه ، وتسير العربة نحو القرية ، والفارس يستذكر أفاعيل السحرة مع الفرسان السابقين ، ويعجب من أن سحرته تخيروا وسيلة فذة للمواصلات لم يجدها فى كتب الأقدمين .

وعاد دون كيخوته إلى قريته فى وضح النهار من يوم عيد ، وأهل القرية متجمعون فى الطرق والميادين ، فقوبل بالعجب والأسف ، ودخل منزله بين بكاء صاحبتيه — ابنة أخته وربة منزله — وعويلهما . ووضع فى فراشه مهزولا منهوك القوى .

وذلك هو آخر الخروج الثانى وبه تختم النصف الأول من الرواية . ودون كيخوته خلال هذا القسم ، فضلا عن مغامراته وحوادثه ، يجد فرصاً عديدة لسماع قصص يرويها أصحابها بأنفسهم ، أو يقرؤها عليه قارئ ، أو يشهد بنفسه بعض أحداثها . فقد تداخلت مع أخبار دون كيخوته فى هذا القسم أخبار أخرى شغلت مكاناً كبيراً من الرواية . من هذه القصص حسب ورودها قصة شهيد الحب ، وقصة فارس الجبل أو الغابة ، وقصة الفضولى العنيد ، وقصة الأسير المسيحى فى أرض الجزائر . وهو استطراد أعرض عنه المؤلف فى القسم الثانى من روايته .

* * *

أما القسم الثانى من الكتاب — وقد طبع بعد عشر سنوات من صدور القسم الأول كما ذكرنا — فيبدأ ودون كيخوته معتكف فى بيته ، والذين حوله يتجنبون اختبار ذهنه ، مخافة أن يرتد إليه جنونه ، ثم يكتشفون أنه لم يشف من جنونه رغم الاعتكاف والمعالجة . ويلقى سانشو سيده ويفضى إليه بما ذكره له سانسون كراسكو — وهو طالب علم من أبناء القرية يدرس فى جامعة سلمنقه — من أن كتاباً ألفه مؤرخ اسمه سيدى حماده بن الجيلى قد صدر مطبوعاً ، وهو يقص مغامرات دون كيخوته وأعماله فى خروجه الأول والثانى . ثم يستدعى كراسكو إلى منزل دون كيخوته ويجتمع به وبسانشو . فيحدثهما عن الكتاب وما فيه . ويعجب الرجلان ويقدران أن مؤلف الكتاب إنما هو من سحرة العلماء . ويبين خلال المناقشة مقدار ما عليه الطالب كراسكو من خبث ودهاء ومن ميل إلى الفكاهة والعبث .

ويعلن دون كيخوته اعتزامه الخروج الثالث ، ويستشير كراسكو فى وجهة المسير ، فيشير عليه بأن يذهب إلى سرقسطة ، وتسمع صاحبتا المنزل هذا فيأخذهما الحزن والألم ، ويشتد غضبهما على كراسكو ويسوؤهما أن يمد طالب العلم لدون كيخوته من حبل جنونه ، وهما لا يعلمان أن كراسكو يدبر فى رأسه أمراً .

وفى مساء يوم من الأيام يخرج دون كيخوته وسانشو فى هيأتهما السابقة ، هذا على حصانه

روسينانتى وعليه سلاحه ، وهذا خلفه على حماره ، وفى وداعهما شخص واحد هو الطالب كراسكو . ويريد دون كيخوته قبل البدء فى مغامراته أن يلتمس التأييد والبركة من حبيبته ، وأن يستفتح جهاده بالحج إليها ، فيتخذ طريقه إلى بلد التوبوسو . ويصل الفارس وتابعه ليلا إلى القرية ويطوفان حولها حتى يقبل الفجر . وأنها لمشكلة لا بد لها من حل . فلا الفارس وتابعه ولا أحد فى ذلك الموضع يعرف من تكون دولثينيا هذه ولا أين يقوم قصرها . ويتفتق ذهن سانشو عن الحل ، فلا يكاد يرى عدداً من القرويات على حميرهن يذهبن مبكرات إلى الحقل ، حتى يعلن لسيده أنه موكب السيدة العظيمة دولثينيا ، ويركع الفارس أمام إحداهن داعياً شاكياً مبتهلا ، بين تعجب القرويات ونفورهن . وأخيراً يعتقد دون كيخوته على عادته أن السحرة من خصومه أرادوا حرمانه من الاستمتاع برؤية محبوبته فمسخوها قروية قبيحة جافية . وهى حيلة صنعها سانشو بنفسه ، ولكنه سيعود مؤخراً إلى الشك فيما اختلقه هو !

ويمضى الفارس بعد ذلك فى طريقه، ويلقى فرقة من الممثلين يعبر لهم عن اعجابه بالمسرح ، ثم يكاد الأمر يفسد بينه وبينهم ولكنه ينتهى بسلام ، ويعود ويعودون إلى حال سبيلهم .

ثم يعترض طريق دون كيخوته فارس مجهول لديه ، يخفى وجهه ويلقب نفسه بفارس المرايا ومعه تابع له ، على هيئة الفرسان الجوالين وأتباعهم ، ويدخل الفارس المجهول فى جدال مع دون كيخوته ، ويتحداه بأن محبوبته أجمل من دوليثينيا دالتوبوسو ، ويطلب إليه أن يعترف بذلك وإلا وجب عليه أن يبارزه ، وأن على المهزوم أن يقبل حكم خصمه ، ما دام الحكم لا يخرج على قواعد الفروسية الجوالة ، ويقبل دون كيخوته التحدى . ذلك الفارس المجهول ليس إلا طالب العلم كواسكو ، أرادها حيلة لكى يرد الفارس الضال إلى صوابه ، ناوياً أن يكون حكمه عند النصر أن يتخلى دون كيخوته عن مغامراته ويتنازل عن حق الفروسية لمدة عامين يقضيهما فى قريته لا يغادرها . وهذا أمر دبره كراسكو مع القسيس والحلاق . ولكن يشاء الحظ أن يهزم الفارس المجهول فى المبارزة ، فتفسد الخطة ، ثم ينكشف وجه المهزوم بعد سقوطه عن حصانه وسنان دون كيخوته بين عينيه ، وكذلك يسقط عن وجه التابع قناعه ، فاذا بهما عند سانشو الطالب كراسكو وأحد جيرانه من القرية . ولكنهما عند دون كيخوته عدوان حقيقيان حولها السحر بعد الهزيمة فصارا فى هيئة الصديقين ، إمعاناً فى السخرية من الفارس والكيد له .

وتجىء خلف ذلك مغامرة الأسود ، حيث يشهد دون كيخوته عربة عليها أعلام ملكية مقبلة ، وإذا هى تحمل أسدين فى قفصين جاءا هدية إلى القصر الملكى من وهران . ويستوقف الفارس العربة ، ويهدد صاحب الأسود ويأمره بفتح باب القفص ليبارز الأسد ويثبت تفوقه عليه ويضيف إلى مجده مجداً جديداً . ولا يجد الرجل مفراً من الأذعان والرمح فى ظهره . ويترجل دون كيخوته ويسحب السيف بدل الرمح ويقف أمام القفص ، ويمعن فى الفرار سانشو ومن هنالك . ويفتح الباب على مصراعيه . ويدعو الفارس الأسد إلى النزال ، فينهض الأسد ، ويطل برأسه من باب القفص ذات اليمين وذات اليسار فترة ، ثم يدير فى بطء ظهره إلى الفارس ، ويعود إلى الرقود فى موضعه . ويأبى صاحب الأسود أن يهيج أسده أكثر من ذلك ، وهو ما دعاه إليه دون كيخوته ، ويؤكد للفارس أنه قد تم له النصر المؤزر على الأسد ، إذ جبن عن النزال ، لا سيما وهو جائع لم يطعم ، وأنه سيحمل هذا النبأ العظيم إلى الملك نفسه حين يلقاه . وهكذا يقفل القفص ثانياً ، ويرى دون كيخوته أن يخلد هذه الواقعة ، فيطلق على نفسه منذ الآن اسم « فارس الأسود » ، بدلا من لقبه السابق الذى كان قد اختاره له سانشو « الفارس ذو الوجه الكئيب ».

ويعود الهاربون ويسير الفارس مزهو بحق، ويمضى فى طريق المغامرة والمجد . ويشهد دون كيخوته وتابعه عرساً يقام قريباً من ذلك الموضع لأحد الأغنياء وتقع فى العرس مفاجآت تفسد الزواج ، ويكون لدون كيخوته صوت مسموع حين يعلن والرمح فى يده أن الحب كالحرب تجوز فيه الحيلة . ويجد سانشو خلال ذلك فرصة لا تعوض ، لكى ينتقم من الجوع ، فيملأ جوفه بالطعام الشهى حتى يتخم وبالنبيذ الجيد حتى يتضلع .

ثم تجيء مغامرة الدخول إلى منتسينوس ، وهو كهف عميق مهجور راكد الهواء تشاع عنه شائعات كثيرة فى تلك النواحى ، وتأبى فروسية دون كيخوته إلا أن يخوض فى أعماقه ليعرف حقيقته . ويتدلى إلى الكهف وقد شد حبلا طويلا إلى وسطه قبض على طرفه سانشو ورجل آخر . وبعد فترة قصيرة يجذب الرجلان الحبل ويخرج الفارس وهو فى غيبوبة يفيق منها ، ثم يأخذ فى حكايةما شهده من عجائب وغرائب خلال أيام قضاها هنالك حسب اعتقاده . فقد رأى حدائق وقصوراً وسحرة وفرساناً ووصيفات . وسمع موسيقى عجيبه ، وشهد فيما شهد حبيبته دولثينيا وقد سحرت قروية جافية ، وعرف أنها غاضبة عليه .

وينتهى المسير بالفارس وتابعه إلى فندق ، يعرف دون كيخوته أنه فندق ولا يرى فيه قلعة كسابق عهده بالفنادق . ولكنه يشهد فيه مسرحاً للعرائس تعرض فيه تمثيلية عن فارس قديم ، فينسى الفارس المشاهد نفسه ، ويستفزه القتال على المسرح فيسحب سيفه ويطير رؤوس العرائس ويحطم المسرح . ثم يضطر إلى تعويض صاحبه عن تلف أدواته .

ويمضى فى طريقه ، فيجد جماعة أرستقراطية قد خرجت فى رحلة صيد ، ويقدم نفسه إلى الدوقة وزوجها الدوق أصحاب الموكب ، فيعرفانه لأنهما قد قرءا تاريخه المطبوع الذى ألفه سيدى حماده ، ويفرحان بهذا الاتفاق السعيد ، ويجدان فيــه فرصة عظيمة للهو والعبث والفكاهة . فيغمران الفارس وتابعه بكل ضروب التكريم والتبجيل التى تليق بفارس عظيم وتابع مشهور فى منزلة دون كيخوته وسانشو بانثا . ويتحول القصر الكبير إلى مسرح كبير لقضايا الحب والسحر والموت والحياة ، وتدبر مكائد . ويركب الفارس وتابعه حصاناً خشبياً يتوهمان أنه طار بهما إلى السماء ، ويقصان ما شهدا من سماوات وكواكب . وتمر أمامهما مواكب فخمة فيها دولثينيا دالتوبوسو مسحورة ، ويعلن أن شفاءها من السحر لا يكون إلا بأن يضرب سانشو ثلاثة آلاف وثلثمائة سوط ! ويمعن الدوق والدوقة فى هزلياتهما ، فيصدر الأمر بأن يعين سانشو حاكماً على جزيرة ليتحقق وعد سيده له ، ويقودون الحاكم الجديد بين تعظيم وتكريم إلى قرية كبيرة يمتلكها الدوق ليمارس وظيفته ، ويكتب سانشو إلى زوجته بالنبأ السعيد ويحمل الرسول إليها الهدايا فى قريتها البعيدة . ويتعرض سانشو الحاكم لامتحانات قاسية وتعرض عليه قضايا معقدة ، وتحاك حوله مؤامرات ، ويتجلى خلال ذلك نوع من الذكاء عند سانشو لم يكن منتظراً منه ، فيحسن تصريف أمور الرعية ، ويسعى لخير المواطنين ، ويصدر أوامر ومراسيم تعتبر قدوة للحكام حتى لقد أطلق الناس عليها « دستور سانشو بانثا » وبعد سبعة أيام من الحكم يضيق سانشو بأعباء الوظيفة وبما يدبر له من أذى يضطلع به موظفو القصر ، فيعود ذات صباح إلى حماره يستخرجه من مربطه ويركبه عائداً وحده إلى حيث فارسه دون كيخوته فى قصر الدوق .

ويسأم دون كيخوته أيضاً حياة القصر ويشتهى العودة إلى حياة الجولان، فيودع الدوق والدوقة ويمضى إلى مدينة برشلونة ، وتصادفه فى الطريق أحداث ويلقى عصابة من قطاع الطرق ، ثم يدخل برشلونة فيلقاه أهلها

بالحفاوة لأنهم قرؤوا تاريخه ويدبرون له زيارة للأسطول ويقيمون له الولائم .

ويخرج دون كيخوته ذات صباح على حصانه وفى سلاحه الكامل للتريض على شاطئ البحر فيعترضه فارس مجهول يلقب نفسه بفارس القمر الأبيض ، يتحداه ويأمره بأن يعترف بتفوق محبوبته على دولثينيا ، ثم يبارزه مشترطاً عليه ، إذا انهزم ، أن يتخلى سنة عن الفروسية ويعود إلى قريته — مرة ثانية — يظهر طالب العلم كراسكو متخفياً لينجز مشروعه . ويصادفه النجاح هذه المرة ، فيسقط دون كيخوته على الأرض وسنان خصمه أمام عينيه فيلتزم بالوفاء بالشرط ولا يسلم بأن على وجه الأرض من هى أجمل من حبيبته دولثينيا .

ويودع دون كيخوته برشلونه وأهلها ، ويعود مهزوماً حزيناً إلى قريته مجرداً من السلاح ، ولكنه فى الطريق يسترد بعض قواه المعنوية ويعتزم أن يقضى سنة الاعتزال هذه راعى أغنام ، حيث يعيش كما يعيش الرعاة فى جو من الشعر والحب والموسيقى ، ذلك الجو الذى صورته القصص الرعوية تصويراً جذاباً جميلا .

وفى مدخل القرية يشهد بعض علامات ويسمع بعض كلمات يرى فيها نذيراً يوحى له بأن الأيام تكاد أن تجرى بنحس لا بسعود . ثم يلقى القسيس والحلاق وطالب العلم ويخبرهم بهزيمته . وقد علموا بها من قبل وبعزمه على التزام وعده ، وتفكيره فى الحياة الرعوية . فيشجعونه ليخففوا عنه صدمة الهزيمة ، ويحثه سانشو على التفاؤل ، وتلقاه صاحبتا البيت بالرعاية والسهر .

ولكنه لا يلبث أن تعتريه الحمى ، فتلزمه الفراش سبعة أيام ، ويزوره الطبيب فيعلن اليأس من شفائه ، وتضج المرأتان بالبكاء ، وتملأ الكآبة قلوب أصدقائه ، وخاصة تابعه سانشو الذى لا يفارق فراش سيده الواجم الذاهل المحموم . ويغشى دون كيخوته نوم عميق طويل ، يفيق منه شديد التنبه واليقظة ، ويستدعى أصدقاءه الثلاثة ليعلن لهم أمراً وليوصيهم . ويجتمعون ويتحدث دون كيخوته ذاكراً أن الله الرحيم قد غمره بلطفه ، ورفع عن عينيه الغشاوة ، وشفاه من الجنون الذى أصابه ، فهو الآن ليس الفارس الجوال دون كيخوته دى لامنشا ، وإنما عاد إلى حقيقته الأولى واسمه الأول ألونسو كيخانا الطيب ، كما عرفه أهل قريته من قبل . ويتم المراسيم الدينية فيعترف للقسيس منفرداً بخطاياه ، ويملى وصيته .

ويغمى على الرجل عدة مرات خلال ثلاثة أيام ثم يوافيه الأجل المحتوم . وبهذا تنتهى حياة البطل ، وبه ينتهى الكتاب بقسميه . وفى العام التالى يوافى الأجل المحتوم المؤلف نفسه ميجيل دى سرفنتس سافيدرا . فينهى الكتاب فى سنة ١٦١٥ وحياة مؤلف الكتاب فى سنة ١٦١٦ .

## قيمة الرواية

لعل قصة لم تظفر من الشهرة والذيوع بين الناس بما ظفرت به قصة دون كيخوته . فان النجاح الذى استقبلت به فى أسبانيا منذ ظهورها ، ثم فى بقية أجزاء العالم ، يكاد أن يكون منقطع النظير . وحسبنا أن نذكر أنها إلى سنة ١٩١٤ كانت قد طبعت خمسمائة مرة فى اللغة الأسبانية ، ومائتى مرة فى الإنجليزية ، وما يعادلها فى الفرنسية ، وأنها مترجمة إلى معظم لغات الأرض . وفى هذا دلالة واضحة على أنها قصة إنسانية ، لم يقف تأثيرها عند شعب دون شعب ، ولم يقتصر نفوذها على زمان دون زمان .

ولعلنا لا نتجاوز الحق إذا قلنا إن إنسانية هذه القصة جاءتها أولا من أنها تمثل الصراع الأبدى فى حياة الإنسان المتحضر ، ما بين نزوع إلى مثالية تتطلع إلى الخير والحق والجمال ، وبين واقع عملى نفعى يفرض وجوده على البشر باعتبارهم بشراً يعيشون فى مجتمع

بشرى . وليس من شك فى أن الآثار الأدبية العالمية كلها لا تخلو أبداً من مثل هذه السمة الإنسانية فى صورة أو أخرى . ويكفينا أن نتذكر هملت لشكسبير وفاوست لجوته . فدون كيخوته خرج ليملأ الأرض عدلا بعد إذ امتلأت جوراً ، فكأنه المهدى المنتظر الذى ترقبته الأجيال فى كل مكان وزمان ، ولكن جهاده لا ينتهى إلى شيء ، وربما انعكست الآية فأحدث من الضرر فوق ما أحدث من الخير . وتابعه سانشو بانثا يمثل الواقعية التى تطلب الفائدة الملموسة والنفع القريب والتى تخلد إلى الأرض مشدودة بالأطماع المادية .

ولكن الطريف فى رواية سرفنتس أن هذا الصراع بين المثالية والواقعية لا يجمد فى نموذجين ثابتين ، وإنما يتداخل الأمر بما يجعله أقرب إلى طبيعة الحياة والأحياء ، فدون كيخوته المثالى ، لا يحركه حب الخير وحده مجرداً ، بل إنه ليطلب لنفسه هو الصيت والمجد والشهرة وسانشو بانثا على واقعيته وأطماعه وجشعه يستفزه حب العدالة والرغبة فى الخير أيضاً . والفارس وتابعه يتبادلان التأثير العاطفى والفكرى فيما بينهما خلال مراحل القصة .

وقد وفق سرفنتس إذ استطاع أن يعرض قضية المثالية والواقعية عرضاً شيقاً جذاباً ، فمزج فيها بين الجد والهزل وبين الأسى والفكاهة مزجاً جعل من قصته متعة للقراء جميعاً على اختلاف حظوظهم من الثقافة وتفاوت عقلياتهم وتجاربهم فى الحياة . وقليلة هى الآثار الأدبية التى تستطيع أن ترضى الخاصة والعامة معاً ، وتستهوى الصغار والكبار فى وقت واحد . وإنما جاءها هذا التشويق من المواكبة البارعة بين المثالية والواقعية من جانب والجنون والبلاهة من جانب آخر ، فالفارس مجنون وهو مع جنونه ينطق بالحكمة . والتابع أبله ، وهو مع بلاهته لا يخلو من ذكاء وخبث . فكأن هنالك صراعاً آخر بين العقل والجنون إلى جانب الصراع بين الخير والشر . وفى الحق إن من استرعى انتباهه فى قصة دون كيخوته الصراع بين المثالية والواقعية خرج منها متشائماً حزيناً . أما من التفت إلى الصراع بين الجنون والعقل فيها فقد خرج منها ضاحكاً غير متشائم .

ثم إن فى القصة من التنوع وتعدد المواقف والانتقال بالأحداث بين البيئات المختلفة من قرى وغابات ومدن ، وبين الطبقات المتعددة من فلاحين ورعاة ولصوص وسجناء وتجار وأرستقراطيين ، ما وهبها رحابة واتساع أفق لا يوجد فى آثار عالمية أخرى ، كل هذا فضلا عن اتصالها المباشر بتراث أدبى ضخم عرفته كل الآداب الإنسانية وهو كتب الفروسية وسير الأبطال الشعبيين فاعتمدت بذلك على ذوق أدبى مشترك لدى الناس على اختلاف آدابهم ولغاتهم . يضاف إلى هذا كله موهبة سخية رزقها سرفنتس فى التفطن إلى الانتقالات الذهنية والعاطفية والعقلية لدى أبطاله ، جعلت من حواره فى القصة ومن خلقه للأحداث والمواقف ما تتجدد دائماً لذته وطرافته كلما أعاد القارئ مطالعة قصته .

وليس من شك فى أن قصة دون كيخوته على نزعتها الإنسانية العالمية الواضحة يمكن أن تربط بحياة مؤلفها وبحياة العصر الذى عاش فيه سرفنتس . وهذا شيء طبيعى فى كل أثر أدبى .

أما ارتباطها بحياة سرفنتس فالوجه فيه أن يقال أن سرفنتس عاش حقبتين من عمره متقابلتين ، حقبة الطموح والأمل والتفاؤل التى رافقته وهو يعمل فى الأسطول الأسبانى ويشارك فى معركة لبانتو . وكذلك وهو أسير فى الجزائر يناضل فى سبيل حريته ويجابه الأخطار ويظفر بتقدير خصومه لشجاعته وصراحته . ثم حقبة اليأس والضياع والتشاؤم وهو يزاول الوظائف الصغيرة يدخل بسببها سجن إشبيلية ، ولا يخرج من السجن حتى يعود إليه ، ويلقى من الضائقة المالية ما يلقاه فيتقرب من الأمراء والنبلاء ويتوسل إليهم بالوساطات

والشفاعات . حقبتان وموقفان من الحياة يشبهان موقف دون كيخوته فى مثالية مبالغ فيها تصور المرحلة الأولى من حياة سرفنتس ، ثم موقف سانشو بانثا فى واقعية عاجزة تمثل المرحلة الثانية من حياة سرفنتس .

وكذلك يمكن أن يستقرأ تاريخ أسبانيا بين مولد سرفنتس وبين تأليفه كتابه فيكشف الاستقراء صفحتين متناقضتين ، صفحة المجد والقوة والتوسع وقيام إمبراطورية أسبانية فى القرن السادس عشر لا تغيب عنها الشمس ، ثم انهيار فى أواخر ذلك القرن وهزائم فى البر والبحر وانكماش فى مجال السياسة والحرب بحيث يكاد يتوازن ما بين الصفحتين من تاريخ أسبانيا وما بين الحقبتين من تاريخ سرفنتس .

وعلى ضوء هذا أخذ كثير من شراح سرفنتس ومن مؤرخى الأدب يتخذون من شخصيات القصة رموزاً وطنية ودينية وشخصية .

ولا بأس بأن يفسر القارئ النص الأدبى كما يشاء ، ويزعم لنفسه أن وراء النص دلالات بعيدة ، بشرط ألا يشغله ذلك عن استقبال هذا الفيض الدافق من الحيوية ومن البساطة الرائعة والتفنن الخصب والتفطن الذكى الذى تزخر به القصة الخالدة « دون كيخوته دى لامنشا » لمؤلفها العظيم ميجيل دى سرفنتس سافيدرا .

## نموذج

ذكر سيدى حماده بن الجيلى المؤلف العربى واللامنشى لهذا التاريخ الخطير الرائع الرصين العذب الخصب الخيال ، أنه أثناء هذه الأحاديث التى دارت بين دون كيخوته الشهير وبين تابعه سانشو بانثا ، والتى نقلناها فى الفصل الحادى والعشرين ، حدث أن رمى دون كيخوته ببصره فرأى فى الطريق الذى يسير فيه نحواً من اثنى عشر رجلا ، مقبلين سيراً على الأقدام ، وهم مقرنون كحبات المسبحة فى سلسلة طويلة شدت إلى أعناقهم ، وفى أيديهم أصفاد الحديد ، وقد أقبل معهم فى نفس الوقت رجلان على جوادين ، وآخران على الأقدام . أما الفارسان فيحملان بنادق من ذات الأسطوانة ، وأما الراجلان فيحملان سهاماً وسيوفاً .

ولما رآهم سانشو بانثا قال : هذه سلسلة البحارة ، وأولئك قوم اغتصبهم الملك فى طريقهم إلى العمل فى السفائن .

فسأله دون كيخوته : ما معنى الاغتصاب ؟ وهل يجوز أن يغتصب الملك الناس ؟ فأجابه سانشو : أنا لا أقول هذا ، وإنما أريد أن هؤلاء ناس حكم عليهم بسبب جرائمهم أن يشتغلوا قسراً فى أسطول الملك .

فاعترض دون كيخوته قائلا : النتيجة على كل حال هى أن هؤلاء الناس يقادون مجبرين لا مختارين .

فقال سانشو : هو هذا .

فرد سيده : وإذن فهنا مجال تطبق فيه مبادئ مهنتى ؛ رفع السخرة ونجدة المغلوبين .

فقال سانشو : تنبه يا سيدى إلى أن العدالة ، التى هى الملك بمعنى آخر ، لا ترتكب ظلماً أو اعتداء على أمثال هؤلاء ، وإنما هو عقاب نالهم على جرائمهم .

وعند ذلك اقترب المقرنون . فدنا منهم دون كيخوته وسأل حراسهم فى عبارات مؤدبة جداً أن يذكروا له السبب أو الأسباب التى جعلتهم يضعون هؤلاء الناس فى ذلك الموضع . فرد عليه أحد الفارسين بأنهم بحارة ، وهم رجال صاحب الجلالة ، يسيرون إلى الأسطول ، وأنه ليس عليه أن يزيد ، ولا على السائل أن يطلب المزيد .

فقال دون كيخوته : ومع هذا فأنا أريد أن أعرف قضية كل فرد منهم وسبب مصيبته — وأضاف إلى هذا القول أقوالا أخرى رقيقة يحضهم بها على أن يذكروا له ما يشتهى أن يعرفه .

وهنا قال له الفارس الثانى : مع أننا نحمل معنا السجلات التى دونت فيها الأحكام والحيثيات عن كل واحد من هؤلاء المنكوبين . فليس هذا بالوقت الذى نستخرج فيه هذه السجلات أو نقرؤها . فليتقدم سيدى إليهم بنفسه ليسألهم شخصياً ، فأنهم سيقولون له إن أرادوا ، وهم ولا شك يريدون ، لأنهم ناس يلذ لهم أن يفعلوا الفساد ويتحدثوا عنه .

واعتبر دون كيخوته هذا القول اذناً له، وإن يكن فى غير حاجة إلى إذن ، وتقدم نحو السلسلة ، وسأل أول من فيها عن الجناية التى أوقعته فى هذا الشر المستطير . . .

* * *

ثم استقبل دون كيخوته بوجهه كل من سلكوا فى السلسلة وقال :

— إخوانى الأعزاء ، لقد استخلصت من كل ما ذكرتموه لى أن العقاب الذى حكم عليكم به ، وإن كان بسبب ما اقترفتموه من ذنوب ، إلا أنه لا يروقكم وأنكم تمضون إلى تنفيذه كارهين ساخطين . وأن سبب ضياع أحدكم جاء من ضعف إرادته أمام التعذيب ، وضياع الثانى من افتقاره إلى المال ، وضياع الثالث من سوء حظه ، يضاف إلى ذلك سوء عقل القاضى ، مما انتهى بكم إلى أحكام لا تتفق والعدالة . وكل هذا ، ماثلا فى خاطرى الآن ، ينادينى ويلح على ، بل ويجبرنى على أن أمارس فى سبيلكم الحقيقة التى بعثتنى بها السماء إلى أهل الأرض ، والتى جعلتنى أنخرط فى سلك الفروسية التى أدين بها ، وأبذل لها عهداً مقدساً فى أن أنعش المحتاج وأنصر الضعيف من ظلم القوى .

ولما كنت أعلم أن الحكمة تقضى ألا يؤخذ بالعنف ما يؤخذ بالرفق ، لذلك أرجو هؤلاء السادة الحراس أن يتفضلوا فينزعوا عنكم قيودكم ويتركوكم تمضون فى سلام ، ولن يعدم الملك أن يجد قوماً آخرين يتولون خدمته فى ظروف خير من هذه . وإنه لأمر فظيع فيما يبدو لى أن نجعل عبيداً من خلقهم الله أحراراً . وفوق ذلك — أيها الحراس — فان هؤلاء المساكين لم يقترفوا شيئاً ضدكم . وسوف يلقى كل إنسان ربه هنالك فى السموات فيعاقب المذنب ويكافىء المحسن . وليس من الخير أن يجعل الرجال الشرفاء من أنفسهم جلادين لغيرهم من الناس دون مصلحة لأحد فى ذلك . وإنى لأطلب ذلك منكم فى سكينة وهدوء تتيحان لى أن أشكركم إذا فعلتموه ، فاذا لم تفعلوه عن نفس طيبة ، فان هـــذا الرمح وهذا السيف تؤيدهما قوة ذراعى سيحملانكم قسراً على فعل ذلك .

فأجاب الحارس :

— يا لطرافة هذا الحمق ! لقد تكشف الأمر سريعاً عن هزل ممتع . إنه يريد أن نتخلى عمن اغتصبهم الملك كأننا نملك حق الإفراج ، أو كأنه هو يملك حق إصدار الأوامر . اذهب عنا أيها السيد ، وامض فى طريقك فى سلامة الله ، وأحكم وضع هذا الطست الذى تحمله على رأسك ، ولا تجتهد فى البحث عن قط له ثلاثة أرجل .

فأجابه دون كيخوته : أنت هو القط والفأر والمعتدى !

وانقض عليه فجأة . فلم يجد الحارس فرصة ليتحرز منه ، فسقط صريعاً بطعنة رمحه . وشاء الحظ أن يكون هذا الحارس هو حامل البندقية ، وبقى سائر الحراس مبهوتين لوقع المفاجأة عليهم . وسرعان ما أفاقوا من ذهولهم فجرد الفرسان منهم سيوفهم وسحب المشاة خناجرهم واندفعوا نحو دون كيخوته ، فوقف ينتظرهم فى سكينة وهدوء . ولم يكن ثمة شك فى سوء المصير الذى يتعرض له دون كيخوته ، لولا أن السفائنيين رأوا الفرصة سانحة كى يستردوا حريتهم فاغتنموها محاولين تحطيم السلسلة التى سلكوا فيها . وبلغ الهرج والمرج حداً

جعل الحراس موزعى الإرادة بين السجناء الذين حطموا القيود وبين دون كيخوته الذى اشتبكوا معه فعلا ، فانتهى بهم الأمر إلى الفشل . ولقد ساهم سانشو فى تخليص «خينس باسامونت» فكان أول طليق استرد حريته ، فانقض على الحارس الملقى على الأرض ، وانتزع منه بندقيته وسيفه ، وأخذ يسدد هذا نحو حارس ويصوب تلك نحو آخر ، دون أن يطلق أحدهما ، مما جعل الحراس جميعاً يفرون من الميدان أمام بندقية باسامونت ، وأمام الأحجار الكثيرة التى انهالت عليهم من البحارة الطلقاء .

وقد اغتم سانشو كثيراً من هذا الحادث ، إذ خطر بباله أن الفارين سيبلغون الأمر إلى جمعية الأخوة المقدسة ، فيخرج هؤلاء وهم يدقون النواقيس ، باحثين عن الجناة . وأفضى إلى سيده بما فى نفسه . ورجاهم أن يسرعوا فى مغادرة ذلك المكان ، ويلتمسوا مخبأ لهم فى الجبال التى كانت بالقرب منهم .

فقال دون كيخوته : حسن هذا . ولكننى أعلم ما يجب عمله الآن .

ونادى جميع البحارة ، وكانوا فى ضجة واختلاط قد سلبوا الحارس الصريع كل ما عليه . فتحلقوا ليسمعوا ما يأمرون به . فخاطبهم دون كيخوته قائلا :

— إن الكرام ليعترفون بالجميل الذى يسدى إليهم وإن إنكار الجميل لمن الخطايا الكبرى التى تغضب الله . أقول ذلك لأنكم أيها السادة قد عاينتم بأنفسكم ما أسديته إليكم . وإنى لأود منكم — وهذا أمر — أن تحملوا هذه السلسلة التى فككتها عن أعناقكم ، وتمضوا بها فى الطريق إلى مدينة التوبوسو ، وتقدموا أنفسكم للسيدة دلثينيا دالتوبوسو ، وتقولوا لها إن فارسها ذا الوجه الكئيب يرسل إليها تحياته . ثم قصوا عليها بتفصيل كل ما اشتملت عليه هذه المغامرة العظيمة من وقائع حتى انتهت إلى ما ظفرتم به من حرية منشودة . وإذ تفعلون ذلك تستطيعون أن تذهبوا إلى حيث تريدون فى توفيق الله .

فأجابه نيابة عن الجميع خينس دى باسامونت قائلا :

— إن ما تطلبه منا يا سيدنا ومخلصنا لما يستحيل علينا تمام الاستحالة أداؤه . لأننا لا نستطيع أن نمضى جماعة فى طريق واحد ، بل لا بد أن نسير فرادى . وفوق ذلك فكل واحد منا يريد من ناحيته أن يخفى نفسه فى أحشاء الأرض كى لا تعثر عليه جماعة الأخوة المقدسة التى ستخرج بغير شك باحثة عنا . وتستطيع يا سيدى أن تستبدل بتكليف المثول أمام السيدة دولثينيا دالتوبوسو أمراً آخر أجدر بأن يفعل ، وهو أن نقدم لها مجموعة من الصلوات والأوراد بناء على قصد سيادتكم . وهذا أمر يستطاع أن ينجز بليل أو نهار عند الهرب أو الاطمئنان فى السلم أو الحرب . أما التفكير فى أن نعود إلى التيه فى طورسيناء ، أو بعبارة أخرى أن نعود إلى حمل سلسلتنا نمضى بها إلى التوبوسو ، فهذا كالقول ، ونحن فى العاشرة صباحاً ، إننا فى ظلمة الليل . وتكليفنا بهذا مثل تكليفنا باجتناء الكمثرى من شجر النشم .

فصاح دون كيخوته وقد تملكه الغيظ : أقسم بالله يا ابن الفاعلة ، يا سيد خنسيللو دى باروبيللو ، أو كما تشاء أن تسمى نفسك . لتذهبن وحدك وذنبك بين رجليك ، والسلسلة جميعها على عاتقك .

وكان باسامونت بطبيعته سريع الانفعال ، وكان قد أدرك أن دون كيخوته غير سليم العقل . لأنه لو كان سليمه لما أقدم على حماقة اطلاقهم من قيودهم ، لذلك كان جوابه أن غمز بعينه إلى أصحابه ، فتنحوا جانباً ، وبدأوا يمطرون دون كيخوته بوابل من حجارة لم يتمكن معها من حماية نفسه بدرقته . وجمد روسينانتى فى مكانه ، كأنه مصنوع من البرونز ، لا يستجيب لنخسات المهماز . أما سانشو فقد استتر وراء حماره ، يدفع بذلك عن نفسه شر الحاصب الذى انهمر عليهما .

ولم يتيسر لدون كيخوته الدفاع عن نفسه . فأصابه من الحجارة عدد لا أدرى مقداره ، كان من القوة بحيث ألقاه على الأرض . ولم يكد يسقط حتى انقض عليه الطالب ( أحد السجناء ) ونزع الطست عن رأسه وضربه به على ظهره ثلاثاً أو أربعاً ، أعقبها بمثلها على الأرض حتى تهشم الطست قطعاً . ثم نزعوا عنه ثوباً صغيراً كان يرتديه فوق السلاح ، وأرادوا أن يجردوه من جواربه لولا درع الساق . وسلبوا من سانشو المعطف ، وتركوه شبه عار . واقتسموا فيما بينهم بقية الأسلاب التي غنموها من المعركة . ومضى كل لسبيله يحاذر أن تعثر به جمعية الأخوة المقدسة التي يشغلهم أمرها ، لا أمر السلسلة والذهاب بها للمثول أمام السيدة دولثينيا دالتوبوسو .

وبقوا وحدهم الحمار وروسينانتي ودون كيخوته وسانشو . أما الحمار فبقي مطرقاً ساهماً ، ينفض أذنيه بين حين وحين ، وهو يظن أن عاصفة الحجارة لم تنته بعد ، لأنها كانت لا تزال تطن في سمعه . أما روسينانتي فقد تمدد بجانب سيده ، لأنه أيضاً أصيب بقذائف صرعته . أما سانشو وقد جرد من ثيابه فكان يخشى ملاحقة جمعية الأخوة المقدسة لهم . أما دون كيخوته فكان منكسر الخاطر إذ شهد كيف يسيء إليه أولئك الذين أحسن إليهم .

